البدو وبعض عوائدهم

لجناب شاهين افندي مكاريوس من خطبة تلاها في المجمع العلمي الشرقي

كان العرب ينقسمون قبل الاسلام الى قسمين كبيرين سكّان المدن والامصار وهم الحضر وسكان البراري والقفار وهم البدو. وقد تغيّرت شؤون الفريقين بعد الاسلام ولا سيما البدو فتحضّر بعضهم وانتشر البعض الآخر في البلدان التي دانت لسلطة المسلمين في بلاد العرب وسورية والعراق حتى حدود العجم وفي مصر ونوبيا وشمالي السودان والصحراء الكبيرة حتى الاوقيانوس الاتلنتيكي. وهم يدينون الآن بالديانة الاسلامية ولم يزالوا مشهورين بالكرم والوفاء وعلو الهمة وإباءة الضيم وحب الغزو كما كان اسلافهم في ايام الرومان واليونان. ولم تجمع كلمة العرب ولا حاولوا التسلط على البلدان البعيدة عنهم الاّ وقت الفتح الاسلامي ولكنهم فعلوا حينئذٍ في قرن واحد ما لم تفعله امّة أخرى في قرون كثيرة فانهم تسلّطوا على اكثر المعمورة وامتدّت شوكتهم من اقاصي الهند الى الاتلنتيكي ومن اواسط افريقية الى بلاد الروس. وتحضّر اكثرهم في البلدان التي دخلوها وزجوا تمدنهم بتمدنها ولكن بقي كثيرون منهم على حالة البداوة فلم تغيّر عوائدهم واخلاقهم عمّا كانت عليه قبل الاسلام الاّ قليلاً وذلك نتيجة لازمة عن انقطاعهم الى القفار الاّ ان القريبين من الامصار منهم فسدت لغتهم بامتزاجها بلغات الامم المجاورة لهم حتى فقدوا ملكة العربية الفصحى قبل زمان ابن خلدون. وقد ذكر هذا المؤرّخ الشهير طرفًا من اشعارهم وهي اقرب الى المغنّى والغنايا والشلوقي الدارج في هذه الايام منها الى الشعر العربي الموزون. من ذلك قولهم في "رثاء الزناتة مُقارعيهم بافريقية وارض الزاب

تقول فتاة الحي سعدى وهاضها ... ولها في ظعون الباكين عويل
اياسائلي عن قبر الزناتي خليفه ... خذ النعت مني لا تكون هبيل
تراه العالي الواردات وفوقه ... من الربط عيساوي بناه طويل

وقولهم عند رحيلهم الى الغرب وتركهم زناتة

واي جبل ضاع لي في الشريف ابن هاشم ... واي جميل ضاع قبلي جميلها
قعدنا سبعة ايام محبوس نجمها ... والبدو ما ترفع عمودًا يقيلها
تظلّ على احداث الثنايا سواربه ... يظلّ الحر فوق النصاوي نصيلها"

وقد جمعتُ في هذه الرسالة طرفًا من عوائد البدو في الولادة والملابس والضيافة والولائم والزواج والموت والحرب والاحكام معتمدًا على ما اتاه بالاختبار وما سمعته من ثقات السيّاح والباحثين

الولادة

يرغب البدو في كثرة الاولاد ولا سيما الذكور الذين يقومون باسم آبائهم ويرثون مناصبهم ومقتنياتهم . ويكرمون المتزوجين اكثر من العزب . واذا ولد لاحدهم صبيٌّ يقيم له الافراح والولائم ويجتمع اهل ربعه لتهنئته ويشربون القهوة ويأكلون اللحم . وتجتمع النساء حول الوالدة يحدثنها اياماً وهي تعتني بطفلها . الاّ ان النساء لا يعتنينَ بانفسهنّ بعد الولادة ولا يتأنينَ لها بل قد يلدنَ وهنّ على الطريق . وعندما يدب الطفل يعلقون له الخرز والنقود على رأسه وعنقه ويلبسونه الخلاخل في رجليه والحلق في اذنيه قصد الزينة وصرف نظر الآخرين عنه لكي لا يصاب بالعين ويلبسون البنات الخواتم والاساور ويزينونهنّ بالوشم على جباههنّ وشفاههنّ وايديهنّ . وحالما يكبر الصبي يبتدئ في رعاية المواشي وركوب الخيل وتعلم الطراد

الملابس والاثاث

ملابس الرجال ثوب من القطن ابيض واسع الاكمام لها اذناب تسمّى الاردان وهي عندهم بمقام الجيوب وبعضهم يلبس فوق الثوب قنباز من الدمايا او الحرير من صناعة دمشق او غيرها بحسب اقتداره . واكابرهم يلبسون فوق القنباز جبّة من الجوخ عريضة واسعة الاكمام وكلهم يلبسون العباءة فوق ثيابهم صيفاً وشتاء ويتقلدون السلاح غالباً من غدّارة وسيف وخنجر وبندقية . واشهر اسلحتهم الرمح الذي يجيله الفوارس واكثرهم يتمنطقون بمنطقة من جلد يشدونها وقت الجوع ويرخونها وقت تناول الطعام ولذلك يقال ان البدوي يمتنع عن الطعام ايامًا ولا تخور قواهُ . ويلبسون على رؤوسهم الكوفية والعقال واكثرهم يشون حناةً وبعضهم يحنذون جزمة حمراء

اما ملابس النساء فثوب ازرق من الخام طويل واسع البدن والاردان ومنطقة صوف يطوينَ عليها اثوابهنّ الطويلة ويرخينها الى الارض فيتوهم الناظر انهنّ يلبسنَ ثوبين . واكثرهنّ يضعنَ اردانهنّ على رؤوسهنّ ويشددنَ عليها بمنديل ويرخينَ الاطراف الى الوراء . وكلما كانت المرأة غنية زادت ثوبها طولاً وعرضاً بحيث يلزم لبعض الاثواب ثلاثون ذراعًا او اكثر . وبعض النساء يوشينَ اثوابهنّ بالحرير المختلف الالوان ولا سيما على الصدر ويلبسنَ في الولائم والافراح قميصًا من الحرير الابيض وفوقه قنباز من الحرير او القطن مشقوق الجانبين الى اعلى الصدر وفوقه جبّة قصيرة من الجوخ ويربطنَ على رؤوسهنَ منديلاً اسود من الحرير او غيره ويتحلينَ بحلى ذهبية وفضية ويضعنَ اساور في ايديهنّ وخزامات في انوفهنّ وخواتم في اصابعهنّ وقلائد في اعناقهنّ واقراطًا في آذانهنّ وخلاخل في ارجلهنّ وصنوفًا من النقود على رؤوسهنّ على انهم رجالاً ونساء لا يعتبرون البذخ والتباهي بالملابس ويفاخر الثياب بل يحافظون على البساطة

اما بيوتهم فخيمة من الشعر يسهل نقلها من مكان الى آخر . وهم لا يسكنون محلاً واحداً بل ينتقلون في الارض بحسب مقتضى الحال ولكل قبيلة منهم ارض تختص بها لا تجاوزها الاَّ في سني القحل فتلتجئ الى ارض قبيلة اخرى حيث تلقى من الاكرام ما عند العرب وعندما تريد الرحيل عن مضيفها يواون لها وليمة ويأخذون بدلاً منها هدية لشيخهم

وبيوتهم من شعر الماعز وهي شقق يحيكها النساء طول كلٍّ منها نحو خمس اذرع وعرضها ذراعان ونصف فيصلونها معاً وينصبونها على اعمدة من خشب ويسكنون فيها

ويقسمون بيوتهم الى اقسام بعضها لهم وبعضها للضيوف والزائرين وبعضها للنار والطبخ وغير ذلك كما سيأتي والذي تكون عائلته كبيرة ونساؤه كثيرات يفرز لكلٍّ منهنَّ خباء . ولا بد من بيت يتزلون الضيوف فيه ضمن بيوتهم . وينصبون بيوتهم على شكل مستطيل او دائرة يضعون في صدرها بيت الشيخ ليهتدي اليه الضيوف ويضعون المواشي وسط الدائرة خوفاً عليها من النهب والسرقة . واثاثهم بسيط لا يذكر فانهم لا يقتنون الاَّ ما يلزم للنوم كفراش ولحاف ووسادة مع بعض الآنية الخماسية والخشبية مما يلزم للطبخ ومناولة الطعام . وفي اكثر البيوت ينتهي الرجل بساطاً او اكثر اذا كان غنياً يجلس عليه ضيوفه . وعندهم من النعم الخيل والحمير والماعز والغنم والبقر والجمال وهم يعتنون بتربيتها وينتفعون بلبنها وسمنها . ويقتنون القهوة والسكر والسمن والارز وغير ذلك . ويفتخرون بالخيل الجياد التي يذللون حياتهم ومالهم للحصول عليها . والبدوي يحب فرسه كنفسه ولا يبيعها الاَّ اذا لم يكن له مناص من ذلك . وخيلهم مشهورة بالجمال والخفة والغريب انهم يشون حفاة ويقتنون اجود الخيل

الضيافة

اشتهر العرب من قديم الزمان بكرم النفس والشهامة والنخوة ودماثة الاخلاق ورحابة الصدر والسخاء واكرام الضيف فترى مشاهيرهم يذكرون بالكرم واضدادهم بالبخل . ومهما كان البدوي فقيراً فلا بدَّ من افراز قسم من بيته للضيوف كما مرَّ يعمل فيه القهوة للزائرين ويتلقى الضيوف بالاكرام ويبذل كل ما في وسعه لاكرامهم . واذا دخل بدويٌّ على قوم ياكلون جلس معهم وشاركهم في الطعام بلا دعوة . واكثر الاحيان اذا دخل غريب على دار قوم تدعوه امينة البيت فيدخل ويلقى الاكرام وان لم يدخل عدَّت ذلك خيانة منه او احتقاراً لها . وعندما يدخل الزائر يقوم له الكل اكراماً بحسب رتبته ثم يسقونه القهوة ثلاث مرات وبعد ذلك يسألونه عن عشيرته وسبب قدومه ويقومون بواجبات الضيافة فيذبحون له نعجة او غيرها ويعجنون له الدقيق ويطبخون الارز بالسمن ويقدمونه على طبق (منسف) ويقف صاحب البيت لخدمته ولو كان شيخاً . ومن العار ان يتأخر

احد عن حقوق الضيافة ولو لعدوّه فاذا كان المضيف لا يملك الاّ نعجةً ذبحها وقدّمها والاّ عُدَّ لئيمًا بخيلاً يحدّث الناس ببخله . والرجل يدافع عن ضيفه ويحميه من كل عدوٍّ ويفتديه بنفسه واهله وعشيرته ولا يسمح بمسه لئلاّ يُعيَّر بين قبائل العرب . والضيف يعدُّ نفسهُ من اصحاب البيت فاذا اغارت عليهم قبيلة أُخرى ساعدهم وانتصر لهم واذا وقعوا في مشكلة اجتهد في فضّها . واذا اكل احد من طعامهم بقي تحت حمايتهم وطولبوا به سبعة ايام وهذه يسمّونها الحُرمة . وقصصهم في ذلك كثيرة يضيق بي المقام عن استيفائها الآن

الولائم والافراح

البدو يحبون الولائم ولذلك تراهم دائمًا يولمونها ويفرحون في ايام السلم . واذا اولم احدهم ذبح ذبيحةً من الغنم او الجمال او الماعز ووضعها على منسف ثم وضع فوقها ارزًا او برغلاً مطبوخًا وسكب فوقها سمنًا كثيرًا . وقام على خدمة ضيوفه لان جلوسه معهم معيب عندهم فيجلس اولاً الشيوخ والوجهاء وعندما يشبعون يأتي من هم بعدهم رتبةً وينهض هولاء ويأتي غيرهم الى ان ياكل كل الرجال فيحمل (المنسف) الى النساء فياكلن بحسب رتبهنّ ايضًا . وفي الاعراس يخصّص لهنّ منسف . وبعض البدو يضعون في اسفل المنسف خبزًا وفوقه ارزًا وفوقه ذبيحة . وعندما يبتدئ الشيوخ بمناولة الطعام ياخذ اكبرهم قطعةً من الرأس ويناولها للمضيف . وهم يجتمعون الى الوليمة بدون دعوة رسمية وياخذون الارز بايديهم ويكتّلونه كتلاً ويدفعونه بابهامهم الى افواههم

ومتى انتهى الطعام يحملون القهوة فيحمصونها ويطحنونها حتّا يحدث الغنم شجيج يلذ سماعها . وبعد اغلائها يسكب صاحب البيت فنجانًا له ثم يناول ضيوفه من كبيرهم الى صغيرهم . وهم يحبون القهوة حبًّا مفرطًا لحبهم للتبخ ويتفننون بعملها فتكون الذّ من قهوة المدن وهي تقوم عندهم مقام المسكرات عند غيرهم

ولهم اعياد كثيرة نذكر بعضها . منها انه عندما ينتهي النصف الاوّل من شهر رمضان يخرج البنات كل يوم بعد العشاء الى البرية وياخذن في الغناء والطرب ويتبعهنّ الشبّان ويختلطون معًا ويقيمون الافراح ويستمرّون على هذه الحال الى الوقفة في رمضان فتنزل البنات الى النهر لغسل ثيابهنّ ويتبعهنّ الشبان ويعطون البنات ثيابهم ليغسلنها لهم وياخذ الكل في الغناء والطرب . وعند الغروب يأتي احد الشبان بشاةٍ ويذبحها وليمة للحاضرين ثم ينصرف الكل الى المضارب البنات حاملات الغسيل وهنّ ينشدن والشبان يطاردون ويرقصون ويغنون . ومتى وصل البنات الى البيوت يدخلنها صفًّا واحدًا بعد ان تعطي كل واحدة غسيلها لامها . ويسترحن قليلاً ثم يقوم الجميع ويلعبون بالدبكة الى ان يتعبوا فينصرفوا الى بيوتهم ويذهب البنات في الغد الى

البرية وهنّ ينشدنَ الاشعار ويشجعهنّ الشبان ويطلقون البنادق ويغنون . ثم يتسابقون على الخيل فمن سبق طلّت له البنات ومدحنه . ثم تنتف ابنة صغيرة على كتف أخرى وتلوّح بمنديل فمن سبق عمد اليها ورفعها عن كتف رفيقتها ووضعها الى جانبه ورجع الى محجة السباق . فان لم يسبقهنّ احد يقبّل الابنة ويرجع بشرف عظيم وتطلق له البنادق وتتكاثر عليه الهبات

ومن عوائدهم في الافراح زيارة مقام بعض الانبياء او ما تسمى من الاماكن على اسم الاولياء كما في نواحي الحولة حيث يزورون مقامًا للنبي هوشع فيذهب الشبان والبنات في افخر الملابس وهم ينشدون الاشعار ويغنون الاغاني المطربة وعند وصولهم يذبحون الذبائح ويضعون فوقها برغلًا وارزًا وسمنًا وبعد ان ياكل الجميع يقوم البنات ويلعبنَ بالدبكة وينصب الشبان غرضًا يطلقون عليه الرصاص جريًا على عوائدهم في الافراح . والبدو احرار في افراحهم ويرقص شبانهم وبناتهم في الافراح معًا وهم مع ذلك من اهل العفة والطهارة

الاعراس

الزواج شرع واجب عند العرب ومحبوب ومرغوب فيه اذا كان العروسان صغيرين وسوق الغرام رائجة بينهم دائمًا . وهم كثيرًا ما يزوجون بناتهم بمن لا يأنسَ اليه وذلك بسبب علاوات كثيرة وحروبًا طاحنة . ونصيب الابنة له حق فيها اكثر من الغريب ولا سيّما اذا كان ابن عمها

واذا احب شاب فتاة ولم يرضَ اهلها بتزويجها به هرب بها الى احدى القبائل المسالمة او المعادية فيعقد زواجها الشرعي خطيب تلك القبيلة حيث يُقدّم لها الاكرام الزائد مع الولائم الحافلة . ثم يذهب رجال هذه القبيلة مع اقارب الشاب الى والد الفتاة ويرضونه بالكلام ويعطونه عوض المهر مهرين فاذا رضي عاد الرجل بعروسه الى اهله واقام الولائم والافراح واذا لم يرضَ ثور الحروب وتمرق الدماء . واذا كان الزواج باتفاق الجانبين حل العريس الى اهل العروس مهرًا من من الماشية مقداره بحسب رتبة العروسين ثم يؤتى بالخطيب فيعقد لها ويذهب العريس الى بيته مع عروسه وحينما تخرج العروس الى بيت ابيها يرافقها رجال عشيرة زوجها ونساؤها مشاةً اذا كان البيت قريبًا والاّ فيركب الرجال الخيول والنساء الهوادج ويمضون بها الى بيت ابيها فتقام لهم الافراح في تلك الليلة وفي الصباح الثاني تركب العروس مع اختها او احدى رفيقاتها من قريباتها في هودج مخصوص برسلة العريس ويذهب الكل الى بيت العريس وهم يغنون ويطاردون على الطريق وعند وصولهم تقام الافراح وتدق الطبول وتعزف الربابة ويرقص الرجال مع النساء وتبقى العروس الى ما بعد نصف الليل في خدر حماتها ثم تنطلق الى خبائها . وفي الصباح يذبح اخو العروس ذبيحةً بين رجليها ويلوم بها الربع . وبعد العرس بسبعة ايام تذبح العروس الذبائح

وتحملها مع اقرب النساء العريس الى بيت ابيها وتقيم عندهُ ثلاثة ايام ثم تعود الى بيت رجلها ومعها من ابيها حمل او ثور او غير ذلك برسم الهدية مع فرشها وهي فراش ولحاف ووسادة او طنفسة . وعند ذلك يهبها زوجها قميصاً من الحرير وقنبازاً من القطن وحلى وعصابة للراس وجزمة صفراء او ثوباً من الخام واذا كان من اصحاب الثروة فيزيد لها في الحلى والملابس . واذا كان العريس واهله غير قادرين على دفع المهر يطرق بيوت العربان فيهبونهُ ما تسمح بهِ النفس ابتدمهُ مهراً

الموت

من قُتِل عند العرب في الحروب والمغازي يُعَدُّ شريفاً ولذلك قلما يحزنون على قتيل الحرب ولا يعلون له مناحة الاَّ ان النساء القريبات منهُ في النسب يقصصنَ شعورهنَّ علامة الحزن . واذا مات احدهم حتف انفهِ يجتمع حولهُ النساء على شكل دائرة ويندبنهُ وتاخذ واحدةٌ منهنَّ سيفاً وترقص بهِ وعندما يتعبنَ من الندب والنواح ياتي الرجالُ ويحملونهُ الى المقبرة حيث يواروهُ التراب فان كان كهلاً عزيزاً احاطوا قبرهُ بدائرة من الحجارة قطرها ١٠ اقدام وعارها ٣ اقدام ووضعوا فوق القبر قطعاً من الخزف والحديد والصوف والمسك ورموا ضمن الدائرة مهباج قهوة وسرج فرس قديم وآنية نحاسية مكسَّرة . وينصبون ثلثة اعمدة يضعون على احدها شعور النساء التي قصَّت حزناً عليهِ واذا كان شيخاً عملوا لهُ قبراً جميلاً ورسموا عليهِ ابريق القهوة والناجون علامة لكريم وسيفاً وغدارات علامة لاقتدارهِ واذا كان شاباً غنَّى لهُ النساء وطارد الرجال على الخيل وغنوا وبكوا ولعبوا بالسيوف . واذا كان جباناً ناح عليهِ اقاربهُ من النساء ورموهُ بذليل من الحجارة وكذا يفعلون بالذي يموت في ديارهم من غير عشيرتهم واذا ماتت ابنة او امرأةٌ ينوح النساء عليها ولا يرقصنَ الاَّ اذا كانت من ابطال زمانها او صبية لامرائهم . واذا مات رجل في الحرب على مقربة من بيتهِ يردَم بالتراب وبعض الحجارة واذا كان بعيداً تترك جثتهُ طعاماً لوحوش البر وطيور السماء واذا كان الميت مشهوراً بفضلهِ اتخذوهُ ولياً وزاروا قبرهُ ووضعوا عليهِ الانوار والخرق . وهم اهل اوهام وخرافات . اخبرني بعض المكارين انهم اقاموا رجمة من الحجارة ودعوها قبر عبد النور باسم شاب منهم فلم يمضِ عليها شهر حتى صار البدو يزورونها بالخرق ويتبركون بها

الحرب والغزو

الحرب صناعة يتولاها البدو منذ نعومة اظفارهم الى ان يتهكم الكبر فمن اشتهر بها أُكرم الاكرام الشديد وذاع صيتهُ بالبطش والبسالة ومن لم يحسن القيام بها عدَّ جباناً وصار هزءا بين قومهِ . ولما كان للبدو ولع بالحرب كان اكثرهم من اصحاب الشجاعة والاقدام . وكلما اكثر البدوي من السلب والنهب عدَّ بين ابطال عصرهِ ورقصت لهُ نساء ربعهِ وتسابقت الى محبتهِ البنات . وكلما

قلّت مغازيه والمواقع التي شهدها واشتهر بها قلّ اعتبارهُ بين قومهِ . وكلما قاسى من الاهوال والمحن بالجراح اكرم وعدّت جراحهُ نياشين شرف . ومن هرب من ساحة القتال لم تقبله امرأته في بيتها بل عيرته بالدناءة والجبن وعدّ في الربع نذلاً مهانًا . واكثر حروب البدو ناتجة عن حب الغزو والاخذ بالثار او خطف البنات او ارتكاب جريمة أُخرى . ومتى ارادوا القتال صاح فيهم الشيخ "الخيل يا اهل الخيل" فلا يمضي الاَّ القليل حتى تأهب الرجال وتعد الخيل والجمال . فيركب الشيخ ناقتهُ ويسير بالقوم الى المكان المقصود

والغالب في حروب البدو ان يركب الجميع على الجمال ويقودون الخيل وراءها ويكون مع كل فارس جامل يتسلّح ببندقية ومقلاع وطبر (فاس) ويسمّى الجامل سكمانيًا . فيركب الاثنان (الفارس والجامل) على جمل حتى يقتربوا من مكان القتال فيقف الجملة هم وجمالهم خارج المحلّة ويتقدّم الفرسان على خيلهم الى الحيّ ويدهمون اعداءهم فان عادوا غانمين رجعوا الى الجمال واعطوا ركبها نصيبهم من السلب ورحلوا الى ديارهم . وان طاردهم الاعداء وتغلبوا عليهم التجأوا الى الجمال واقاموها سورًا لهم من رماح الاعداء وقد يستطيل عليهم اعداؤهم فيقتلون منهم ويأسرون وينهبون جمالهم

ومن عادتهم ان ينقسم الغازون الى ثلث فرَق . الفرقة الاولى تدخل الحيّ لاخراج ما فيهِ من المال والمواشي . والثانية تقف خارجًا على مقربة من الحرَس للدفاع عن الفرقة الاولى اذا مسّت الحاجة . والثالثة تقف بعيدًا ترقب عابر الطريق وتُعلم المحاربين بقدوم الاعداء عليهم من احدى النواحي . وقبل الشروع بالنهب تتحالف الفرق الثلث على عدم الخيانة واذا فازوا في الحرب اقتسموا الغنيمة بحسب سنتهم وذلك ان القائد او الامير فيهم يأخذ الربع وان طمع فالثلث . ثم تختار الفرقة الاولى نصيبها ثم الثانية فالثالثة

ومن عادتهم ان يتجسّسوا الاراضي قبل اقتحامها حتى اذا رأوا الغنيمة محالاً عادوا على اعقابهم وسرقوا ما امكنهم خفيةً . ويحل لكلٍّ منهم ان يسرق ويقتل لكي يشتهر وان لزم العفّة واحترم الحقوق رُذل وحطّ قدرهُ . واذا اغتنم احدهم شيئًا بدون مطاردة اعطى الغنيمة لشيخ القبيلة ولكن اذا قتل فارسًا اثناء الحرب واغتنم فرسهُ صارت ملكًا لهُ لا يعارضهُ احد فيها

ويأخذون النساء معهم الى ساحة القتال كي يعتنينَ بالجرحى ويحملنَ الماء لرجالهنَّ ويشجعنهم على الضرب والثبات ويغنينَ لهم اغاني الحماسة واذا هرب احد عيّرنهُ او قصّر شدَدنَ همتهُ . وقد تدخل البنات ساحة الحرب ويفعلنَ فعالاً تعجز عن مثلها الرجال فيحرزنَ مقامًا ساميًا ومنزلةً رفيعة ويتفاخر بهنَّ ذووهنَّ وتكثر على ابوابهنَّ الطلاّب من الفرسان واولاد المشايخ والامراء ويصرنَ سببًا لغنى اهلهنَّ وشرفًا لقبيلتهنَّ

واذا انهزمت قبيلة في الحرب والتجأت الى قبيلة أُخرى مسالمة اعدادها تبذل هذه جهدها في القاء السلم او تلازم الحيادة الاّ اذا كانت المتصرة هي المذنبة فتنتصر للفرقة التي التجأت اليها . واذا التجأ اليها الفريقان تبذل الجهد ايضاً في القاء الوفق او تسعف القبيلة التي التجأت اليها في الاوّل اذا كانت الاخرى مذنبة والاّ فتلازم الحيادة . ومَنْ قتل امرأةً او اسر ابنةً يُعدُّ فعله دون فعل الرجال ولا يُذكَر بين الغانمين . واذا سقط فارس عن جوادهِ لا يقتلونهُ ومن سلَّم لهم سلم ولو كان من الدّ اعدائهم ومن استنجدهم انجدوهُ برجالهم ومالهم واذا مات احدهم في الحرب اكرموا اولادهُ وقاموا بحاجات عائلتهِ وقتيل الحرب يُبكى عليهِ بكاءً مرًّا ولا يثني اهله عن الاخذ بثارهِ . اما الاسير فيكرم ايضاً واذا فُكَّ لا تنبله البنات زوجاً لهنَّ الاّ بعد رد شرفهِ

شرائعهم واحكامهم

البدو بعض الشرائع العادلة التي تنصف المظلوم وتقضي بالجناية على الظالم وحاكمهم يدعى (شرعًا او عارفًا) والكل يطيعونهُ . وهو من مشايخهم الذين اختبروا امور الحياة فيقضي بالانصاف ومن لم يقم بحكمهِ يقاصّ بالطرد والتعبير . والاحكام عندهم اما شرعيَّة وهي ما تتعلَّق بالدين كالزواج والطلاق . واما عرفيَّة وهي ما تتعلق بالامور الجنائية كالغزو والقتل وخطف البنات وغير ذلك

فاذا كان لاحدهم دعوى على آخر يلتجئ المدَّعي عليهِ الى بيت فيطالبهُ المدَّعي من صاحب ذلك البيت ويصير مسئولاً عن الملتجئ الى دارهِ فاذا كان هذا مذنباً يصرف صاحب البيت المسألة كما يشاء والاّ فيتوجه الاثنان الى الشرع مع صاحب البيت الذي يحامي عن تزيلو . واذا قضي على المدَّعى عليهِ يُعد هذا بالقيام بالامر بكفالة صاحب البيت والتداعي عندهم على هذه الصورة

يحضر المتداعيان الى العارفي ومع كلٍّ منهما اثنان او ثلثة من اعيان عائلتهِ ويجلسان في صدر المحل فيقول العارفي ان فلانًا وفلانًا قد حضرا لينقاضيا على القضية الفلانية فيجيب الحاضرون انهم يسمعون وحينئذٍ يأمرهما القاضي بان يرهنا بنادقهما او سيوفهما او غيرهما على الخضوع للحكم ويقول ان الذي يُحكم عليهِ يفك رهنهُ ويؤدّي الى غريمهِ فيقسم الحاضرون على اجراء ذلك . ثم يسرد المدعي دعواهُ والمدعى عليهِ ساكت وحينما يأتي على آخرها يأخذ المدعى عليهِ بحجج عن نفسهِ ولا يعارضهُ احد حتى ينتهي فحينئذٍ يعرض القاضي القضية على الحضور فيجيبونهُ ان الحكم للشرع فياخذ يسائل الخصمين ويحاجهما ويسائل الحضور في امرها ويسمع اقوال الشهود (ولا فرق عندهم في الشهود سواء كانوا رجالاً او نساء او اولادًا) ثم يبدي حكمهُ مبيّنًا اياهُ بشواهد وروايات عن احكام اسلافهم فيلتزم المحكوم عليهِ بالقيام بالحكم ويأخذ الرهن الذي وضعهُ بعد ان يعطي القاضي نجبة

ويولم المربع وليمة ولا يتهاون عن القيام بالحكم واذا عجز عن القيام به يقوم به اهل ربعه . ولا يستأنف حكم العارفي مطلقًا . واعظم الجرائم عندهم اغتصاب البنت ثم التعدي على الناموس او إحتقار اهل الوجاهة . اما القتل فقلما يعتدون به ولا يحكمون على القاتل بالقتل لان هذا يفر الى غير قبيلته فتحميه . وحكم السرقة التعويض عن المسروق مثلين . وقتل الاعداء وسرقتهم مباحة ولا مطالبة بها الاَّ باخذ الثار بالسيف . ومن يسرق صاحبًا يحكم عليه بتأدية المثل اربعة اضعاف ومن يقتل صديقًا يلزم بتأدية الدية وعلى اهل عشيرته ان يساعدوهُ عند اللزوم وعلى وريث المقتول ان يناسم اعيان عشيرته على ديته مقابلة لكونهم ملتزمين بمساعدته لو كان قاتلاً وحكم عليه بدفع الدية واذا عجز مديون عن وفاء الدين لدائنه فالدائن ياخذ المال من اقارب غريمه وله حق ان يستولي على مال اقارب المديون ولا يطالبهُ احد بذلك

وهم يخضعون لمشايخهم خضوعًا تامًّا . فلكلّ من قبود العشائر شيخ يقضي في احوال فنده فيامر وينهي ويبعد من شاء ويقرّب من شاء . واذا صار جمع جزية من فنده ياخذ نصف المجموع ويعطي النصف الآخر لشيخ الشيوخ وهو برضي الحكومة . وشيخ الشيوخ هنا يسمّى الامير وشيخ الحكم هو حاكم العشيرة بكل قبودها وهو الذي يقابل الدولة عن كل مسألة لها علاقة بعشيرته واليه ترجع المشاكل الكبيرة بين فندة وفندة . وله ريال على كل جمل يباع لتاجر من عشيرته ياخذهُ له البائع . واذا غنم غزاة قومه خيلاً احضروها له وان تاخروا عن ذلك ارسل رجلاً في طلبها . واذا مرَّ بارضه عدد من الغنم من ٣٥٠ الى ٤٤٠ اخذ عليها مئة غرش . واذا قتل اجنبي رجلاً من رجاله ياخذ هو دية المقتول . فاذا كان القاتل من عشيرته ياخذ نصف الدية ويعطي النصف الآخر لشيخ فندة المقتول واهله

وبوجه العموم اقول ان البدو اصحاب نخوة ومروءة عندهم من شرف النفس والكرم وحفظ العهود وصيانة العرض واغاثة الملهوف واعانة الضعيف واكرام الضيف والجار وبساطة العيش في الملابس والمآكل واجتناب الفواحش التي تضر بالهيئة الاجتماعية ما يجعل باعظم الممالك المتمدنة اقتباسه عنهم . ولكنهم بسطاء يصدقون الخرفات الكثيرة ويعتبرون التنجيم والسحر واصابة العين ويصدّقون بكتابة الاوراق التي تميل بقلب العاشق او المعشوق الى رفيقه . ويحبون المآكل الحلوة ولاكثارهم ولع في التدخين وشرب القهوة كولعهم في الحرب . انتهى

اذا انتَ لم تشرب مرارًا على القذى ظمئتَ وايُّ الناس تصفو مشاربهُ